المقتطف

الجزء السابع من السنة التاسعة عشرة

يوليو (تموز) سنة ١٨٩٥ الموافق ٨ محرم سنة ١٣١٣

القيصرتان

الملكة فكتوريا (من فوتوغراف رسل واولاده)

احتفل الشعبان الاعظمان في اوائل الشهر الماضي واواخر الذي قبلهُ بعيدَي ملكتين لها ثلث المسكونة ارضاً ورعيَّة الأولى ملكة الانكليز وقيصرة الهند اكبر القيصرات سنًّا واوسعهنَّ ملكاً والثانية قيصرة الروس وهي فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها اقترن بها قيصر الروس في اواخر العام الماضي. وقد رأينا ان نوافي القرَّاء بطرف من سيرتيهما واحوال ممالكهما

ولدت فكتوريا ملكة الانكليز وقيصرة الهند في الرابع والعشرين من شهر مايو (ايار) سنة ١٨١٩ وابوها دوق كنت الابن الرابع من ابناء الملك جورج الثالث . وامها الاميرة فكتوريا ارملة البرنس لينجن الالماني . وقد ظنّ من يوم ولادتها انها ستكون وريثة لسرير المملكة الانكليزيّة لان عمها الاكبر ولي العهد كان لهُ ابنة وحيدة فتوفيت سنة ١٨١٧ من غير عقب وعميها الآخرين اكتهلا قبل ان تزوجا فولدت قبل ان يولد لها اولاد . وكان ابوها خيرًا من اخوته آدابًا وفضائل ولذلك لم يكن محبوبًا في بلاط ابيه . وكان ابوهُ طا . في السن وقد عمي واصيب بدَخَل في عقلهِ فناب عنهُ وليُّ عهدهِ وهو كهل متهتك وكانت البلاد الانكليزيّة تئن من اثقال المظالم والمغارم

وقبل ان اتمت الشهر السابع من عمرها أُصيب ابوها بنزلة شديدة قضت عليهِ فقامت أُمها على تربيتها وبقيت في البلاد الانكليزيّة لكي تربيها على اخلاق الانكليز وعوائدهم . وتوفي جدُّها الملك جورج الثالث بعد قليل فرأت أُمها ان لا بدَّ لها من الابتعاد عن بلاط الملك تجنبًا لما فيهِ من المفاسد فأقامت في قصر كنسنتن هي وابنتها وابنة أُخرى من زوجها الاول اسمها فيودورا

وربيت احسن تربية وهذّبت اكمل تهذيب فتعلمت اللغة الانكليزيّة والالمانيّة والفرنسويّة والايطاليّة واللاتينيّة والعلوم الرياضيّة والموسيقى والرسم وعُوّدت الاقتصاد في النفقات واتمام ما تباشرهُ من الاعمال . ولم يُكشف لها شيءٌ من امر مستقبلها وعلاقتها بالملك . فلما كبرت ورأت الرجال يحترمونها اكثر مما يحترمون اختها وهي اكبر منها احتارت في امرها ولم تعلم سبب ذلك . ولما بلغت الحادية عشرة من عمرها ارتقى عمها وليم الرابع الى سرير الملك فرأت امها ومعلمتها ان تخبراها انها وليّة عهدهِ فوضعتا صورة نسبها في كتاب كانت تقرأهُ فلما اطلعت عليها قالت "ما هذا فانني لم ارَهُ قبلاً" فقالت لها المعلمة نعم لم يُستحسن ان تريهِ قبلاً فقالت " اذًا انا اقرب الى الملك مما كنتُ اظن " فقالت لها نعم . فقالت " ان كثيرين يفتخرون اذا كانوا في مقامي لانهم لا يعلمون مصاعبهُ ففيهِ مجد كثير وفيهِ تعب اكثر اما انا فساسير السير الحسن . وقد اتضح لي الآن لماذا تحثينني على الدرس حتى على درس اللغة اللاتينيّة التي هي اساس اللغة الانكليزيّة كما قلتِ لي واصل كل التعبيرات البديعة فيها وقد درستها كما طلبتِ مني اما الآن فصرتُ اعلم سبب ذلك " ثم كررت قولها الاول وهو انني ساسير السير الحسن

فقالت لها المعلمة ان زوجة عمك وليم الرابع لم تزل فتية وقد تلد اولادًا فيكون

الملك لهم لا لكِ . فقالت " ان ذلك لا يغيظني بل يسرني لانني اعلم انها تحبُّ الاولاد الصغار من محبتها لي

ولما بلغت السابعة عشرة من العمر زارها البرنس البرت ابن خالها وكان من اجمل الناس خَلقاً واكملهم خُلقاً فاحبتهُ واحبها وعلم خالها (ملك البلجيك) بذلك فكتبت اليهِ تقول " اتوسل اليك يا خالاه ان تهتم بصحة من صار اعز الناس اليَّ وتعتني بهِ اعتناء خاصًّا وارجو واثق ان كل شيء يجري طبق المرام في هذا الامر الذي صار اهم الامور لديَّ "

ولما وصل هذا الكتاب الى خالها ثبت لهُ انها تحب البرنس البرت وانها عازمة على الاقتران بهِ ففكَّر دروسهُ في المدرسة لكي تناسب المقام المعدّ لهُ

وفي العشرين من شهر يونيو (حزيران) سنة ١٨٣٧ توفي عمها الملك وليم الرابع فاسرع رئيس الاساقفة وثلاثة من العظماء الى قصرها ليخبروها بذلك وبأن الملك انتقل اليها فقال لهم الخدم انها نائمة فقالوا " اننا آتون اليها بمهمَّة تتعلَّق بمملكتها فلا بدع اذا حرمت نفسها من النوم لاجلها " . فنزلت اليهم والدموع ملءُ عينيها واول شيء فعلتهُ انها كتبت كتابًا الى زوجة عمها تعزيها وتهنئهُ وعنونتهُ الى " جلالة الملكة " فقالوا لها ان تضعونهُ الى ارملة الملك لانها لم تبقَ ملكة فقالت نعم انني اعلم ذلك ولكنني لا اريد ان اكون اول من يخبرها بهِ

وفي الصباح جاءها الوزير الاول واعضاء مجلس الدولة وبايعوها الملك وحلفوا لها يمين الطاعة . ولما رأت الشيوخ من انسبائها يركعون امامها علتها حمرة الخجل ولكنها علمت ان ذلك من مقتضيات مقامها السياسي وهي تغاير العلاقات العائليَّة كل المغايرة فقابلتهم بما يجب من العظمة وعزة النفس

ونودي بها في اليوم التالي ملكة على البلاد الانكليزيَّة وظهرت امام شعبها لابسة اثواب الحداد على عمها وحولها عظماء المملكة بأبهى الحال والفخر وسامات الشرف . وللحال شرعت تنظر في شؤون المملكة . قال وزيرها الاول لورد ملبرن انها كانت اصعب عليهِ من عشرة ملوك لانهُ لم يقدِّم لها ورقة لتمضيها الاَّ قرأتها بتمعن وسألتهُ عن كل ما يتعلق بها وكثيرًا ما كانت تبقيها معها لكي تراجعها وتنظر فيها مليًّا قبل ان تمضيها . وقال لها مرة عن امر " ان في هذا الامر مصلحة لجلالتك " فقالت لهُ لقد تعلمتُ ان افرق بين النافع والضار ولكن كلمة "مصلحة" لم ترِد عليَّ في ما تعلمتهُ ولا اريد ان اسمعها منك. وطلب منها

مرةً أُخرى امضاء امر قائلاً ان اهميتهُ فائقة . فقالت " ان وضع امضائي على هذا الامر له عندي اهميَّة فائقة ايضاً فلا اضعهُ الاَّ بعد ان اتحقق ان وضعهُ واجب ". وذلك لانها كانت تعلم ان شؤون المملكة قد أُهملت واختلَّت في ايام سُلفائها فعزمت ان لا تجري في خطتهم ولم تزل على عزمها الى يومنا هذا . ويقال انها تعلم شؤون المملكة كلها كبيرها وصغيرها ولا تمضي امرًا الاَّ بعد ان تتأكد انهُ واجب او ان منهُ نفعاً لبلادها . ويقال ايضاً ان وزراءها يطلعونها كل يوم على خلاصة كل ما يجري في مجلس النوَّاب فاذا كان غلادستون في الوزارة مثلاً بعث اليها كل يوم بخلاصة ما يجري في المجلس بخط يدهِ واذا كان الوزير من الامراء الذين لا يجلسون في مجلس النوَّاب كلف وزيرًا آخر بذلك . فهي عالمة بشؤون السلطنة الانكليزيَّة كلها ومشاركة فيها ولذلك نالت مانالت من الحب والمكانة في قلوب وزرائها وشعبها عمومًا . ولما رقيت الى سرير الملك سعى كلٌّ من الحزبين الكبيرين في البلاد الانكليزيَّة حزب المحافظين وحزب الاحرار ان يستميلها اليهِ وكانت قد ربيت بين الاحرار وصادقت كثيرين منهم ولكنها علمت ان مشيئتها يجب ان تنطبق على دستور المملكة فلم تفضِّل حزبًا على آخر

واحتفل بتتويجها احتفالاً لم يسبق لهُ مثيل في البلاد الانكليزية وأُجريت حينئذٍ جميع الرسوم القديمة الاَّ رسمًا واحدًا وهو ان امراء المملكة يقبِّلون الملك في خدهِ الايسر فابطلت هذا الرسم انفة . وحدثت حينئذٍ حادثة صغيرة مكَّنت حبها من قلب شعبها وذلك ان احد الامراء كان شيخًا طاعنًا فعثرت رجلهُ وهو صاعد على سلَّم العرش لكي يقدِّم لها الاحترام الواجب فسقط وعسر عليهِ النهوض فتحفَّزت للقيام لكنهُ نهض ودنا منها متثاقلاً لعجزهِ فنهضت ولافتهُ لكي تخفف عليهِ مشقة المجيء اليها فأبانت بذلك ما امتاز بهِ حكمها على رعاياها وهو الجمع بين الدعة وعزة الملك

واول حادث استاءت منهُ وكاد يفضي الى عواقب وخيمة ان وزارة اللورد ملبرن الحرَّة اضطرت ان تستعفي وكان يقتضي ان تخلفها وزارة المحافظين لان جمهور النوَّاب كانوا منهم . فأُخبرت ان لابدَّ لها من عزل بعض السيدات اللواتي في خدمتها لانهنَّ من حزب الاحرار فرفضت ذلك وعلم المحافظون بهِ فابوا ان يؤلفوا الوزارة ولم يكن الاحرار قادرين على اكتساب ثقة البلاد . وبلغ خالها ملك البلجيك ذلك فانفذ اليها البرنس البرت واخاهُ حاسبًا ان حبهُ يصرفها عن عزمها ويسهل عليها الانقياد الى مشيئة شعبها ويقيها من الدسائس . وكانت تقول حينئذٍ انها لا تبغي الزواج فلما رأتهُ وكان قد صار من اجمل

الشبان قدًّا تذكرت حبها القديم لهُ وكتبت الى خالها تقول " ان جمال البرت يخلب القلوب ولطفهُ يدهش العقول . وهو واخوهُ على غاية الظرف والادب وقد سررت جدًّا بمجيئهما " . وبعد شهر من الزمان اعطتهُ زهرة كانت في يدها لكي يضعها في صدرهِ ولم يكن في سترتهِ عروة لها فاخرج سكينهُ وخرق بها السترة بجانب قلبهِ ووضع الزهرة في الخرق . فعجبت من بداهتهِ ولطفهِ فدعتهُ اليها في اليوم التالي وطلبت منهُ ان يقترن بها . لان مقامها يقضي عليها ان تكون هي البادئة في هذا الطلب . وقد كتب حينئذٍ الى جدتهِ يقول " دعتني الملكة الى غرفتها واعربت عن حبها لي ثم قالت انني انيلها غاية السعادة اذا شاركتها في الحياة ولو كان ذلك خسارة كبيرة عليَّ . وانهُ يسوءها انها لا تستحق ان اكون لها زوجًا . ولقد سحرني ما في كلامها من الدلالة على الحب الصادق "

وكتبت الملكة حينئذٍ الى البارون سكمار مشير خالها تقول " لا ادري كيف افتتح كتابي بعد ان صرَّحتُ لك بان لارغبة لي في الزواج الآن ولكن الخبر الذي ساخبرك بهِ يحملك على العفو عني فقد ملك البرت فؤادي وتعاهدنا هذا الصباح على الحب الدائم وانا واثقة انهُ يسعدني وحبذا لو وثقتُ انني أُسعدهُ كذلك "

وقد يظن كثيرون ان البرنس البرت ربح بهذا الاقتران وربما حسدهُ البعض عليهِ اما الملكة فكتوريا فكانت تعلم علم اليقين انها هي لم تخسر شيئًا بل كسبت زوجًا امينًا محبًّا واما هو فخسر وطنهُ وفارق اخاهُ واهلهُ واضطرَّ ان يسكن بين اقوام يجهل لسانهم وعوائدهم وقد يتعذَّر عليهِ ان يرضيهم ولم يَنَل حقًّا من حقوق الملك الَّتي كانت لزوجتهِ . وقد قال في هذا الصدد انهُ " بحسب شأنهُ ضاع في شأن زوجتهِ ولا يطمع بسلطة ولا بجاهٍ وان عليهِ ان يراقب احوال السلطنة دواماً لكي يستطيع ان ينصح لزوجتهِ ويرشدها ويعينها في المشاكل الكثيرة الَّتي تعرض عليها سياسيَّة كانت او عائليَّة " . وكانت المحبة والثقة محورين لاعمالها فحلاَّ المشاكل كلها بالحكمة والسداد

ولما اعلمت مجلس النواب برغبتها في الاقتران بالبرنس البرت سرَّ اعضاؤهُ بذلك لانهم كانوا في قلق من جهة ولاية العهد الاَّ انهم اختلفوا في الراتب الذي يعينونهُ لهُ والمنزلة الَّتي يكون فيها وبقيت منزلتهُ موضوعًا للجدال الى ان حلتها الملكة نفسها فجعلتهُ الثاني لها في المملكة وكان في وسعها ان تعطيهُ لقب ملك كما يعطي الملوك زوجاتهم لقب ملكات ولكنها لم تفعل ذلك لانهُ كان من الامراء الصغار في اوربا ولان الشعب الانكليزي شديد الانفة وضنين جدًّا بالقاب الشرف

وتم الاقتران في العاشر من شهر فبراير سنة ١٨٤٠ ورزقت الملكة ابنة في اواخر ذلك العام وهي الامبراطورة فكتوريا ارملة امبراطور المانيا السابق ثم رزقت ابناً في العام الذي بعده وهو ولي العهد . وآخر اولادها البرنسس بياتريس التي ولدتها سنة ١٨٥٧ واولادها تسعة وهم

(١) البرنسس فكتوريا ارملة الامبراطور فردك وليم ولدت سنة ١٨٤٠
(٢) البرنس البرت ادورد ولي العهد ولد سنة ١٨٤١
(٣) البرنسس اليس ولدت سنة ١٨٤٣ وتوفيت سنة ١٨٧٨
(٤) البرنس الفرد دوق سكس كوبورج ولد سنة ١٨٤٤
(٥) البرنسس هيلانة ولدت سنة ١٨٤٦
(٦) " لويز ولدت سنة ١٨٤٨
(٧) البرنس ارثر دوق كنت ولد سنة ١٨٥٠
(٨) " ليوبلد دوق البني ولد سنة ١٨٥٣ وتوفي سنة ١٨٨٤
(٩) البرنسس بياتريس ولدت سنة ١٨٥٧

وعاشت مع زوجها على اتم الحب والصفاء والهناء . وكانا قدوة الازواج والوالدين والاصدقاء في التقوى والعفة والحنو وحسن التربية ولطف المعشر كما يظهر من القصة التالية وغيرها من القصص الكثيرة التي يروبها عنهما عشراؤهما . قال مندلسن الموسيقي الالماني الشهير وكان قد زار البلاد الانكليزية

"دعاني البرنس البرت لكي اراه ارغنهُ قبلما ابرح البلاد الانكليزية فذهبت اليه ووجدته جالساً وحدهُ في غرفته ودخلت الملكة حينئذٍ وقالت انها عزمت على المضي الى كلارمنت بعد ساعة ثم التفتت الى ما حولها وقالت انظروا كيف عبثت الرياح باوراق الموسيقى وملأت ارض الغرفة بها وانحنت وصارت تجمعها فاخذنا نساعدها في ذلك انا والبرنس. ثم رجوت البرنس ان يضرب امامي اولاً حتى افتخر بذلك حينما اعود الى بلادي فضرب على الارغن غيباً واجاد ووقفت الملكة بجانبهِ مسرورة . وتلوتهُ انا فضربت الفصل القائل ما اجمل اقدام المبشرين وقبل ان آتي على آخر السطر الاول شاركاني في الغناء ثم سألتني الملكة عمَّا اذا كنت قد نظمت اغاني جديدة وقالت انها مولعة باغانيَّ المطبوعة فقال لها البرنس اذن يجب ان تغني لهُ واحدة منها فتمنعت اولاً ثم قالت انها تغني وفتشت عن الاغنية فلم تجدها لانها كانت قد رُبطت مع بعض الاوراق والكتب

لترسل الى كلارمنت حيث كانت عازمة ان تذهب . فقلت لماذا لا تفكها فذهبت الملكة بنفسها لتفكها من رباطها. فأعطاني البرنس البرت حينئذٍ خاتمًا بديعًا من الالماس وقال ان الملكة ترجو منك ان تقبل هذه الهديَّة تذكارًا . ثم عادت وقالت ان الكتب قد أُرسلت الآن فلا سبيل لارجاعها. فقلت عساني لا أُحرم مما وُعدت به بارسالها. فقرَّ القرار على ان تغنينا اغنيَّة اخرى فذهبنا معها الى غرفتها لنفتش عن هذه الاغنيَّة فوجدتُ هناك مجموعةً من اغاني الاولى فطلبت منها ان تغني واحدةً منها بدل تلك فاخذتها وغنتها ولم تخطئ الَّا في صوت واحد منها واجادت في بقية الاصوات اجادةً لا مثيل لها لكنها قالت انها خافت مني لاني استاذ هذا الفن فلم تحسن الغناء . فمدحتُها بما هي اهلهُ واشرت الى الصوت الذي لم تجِدْهُ . ثم غنى البرنس وغنيت انا واجدت على خلاف عادتي في مثل ذلك الموقف ثم استأذنت بالانصراف فطلبا مني ان اعود الى البلاد الانكليزيَّة سريعًا وازورهما "

ويرى القارىء من ذلك بساطة العيشة العائليَّة الَّتي عاشتها هذه الملكة العظيمة هي وزوجها ولين عريكتها ولطف معشرها ويستدلُّ منهُ على ان اللطف وانخفاض الجانب لا ينافيان عزَّة الملك وارتفاع القدر فانها لو زارها متدلسن او اكبر امير من الامراء زيارة رسميَّة لاضطرَّ ان يقوم بكل الرسوم الواجبة في تلك الحال ولا يمثل في حضرتها الَّا بعد انتظار طويل وقد لا يباح لهُ ان ينطق كلمة واحدة امامها

وسنة ١٨٥١ قام نبوليون الثالث واستولى على عرش فرنسا وخيف من شبوب نار الحرب بين فرنسا وانكلترا ولكن عقلاءهما تلافوا الخطب قبل وقوعهِ . وزار نبوليون وزوجتهُ البلاط الانكليزي فقابلتهما الملكة وزوجها مقابلة الامثال للامثال وردَّا لها الزيارة تلك السنة. وزارت الملكة قبر نبوليون الاول حينئذٍ فكتبت تقول " كأن العداوة القديمة قد مُحيت بما ابديتهُ من واجب الاكرام لرفات هذا العدو الالد وكأنَّ الله قد ختم على ربط الاتحاد الذي تمَّ الآن بين امتين قويتين عظيمتين " . وكان ولي عهدها واخذهُ معها فسرا بمشاهد باريس سرورًا عظيمًا وطلبا من الامبراطورة اوجيني ان تبقيها عندها فقالت لهما ان الملكة لا ترضى بذلك فقالا لها انها ترضى لو سألتها لان عندها ستة اولاد غيرنا وبقي ولي العهد مغرمًا بمشاهد باريس الى يومنا هذا

ونشبت حرب القرم حينئذٍ فاهتمَّت بها هي وزوجها اهتمامًا عظيمًا . وقد كتبت في هذا الشأن الى خالها الملك ليوبُلد تقول " ارى البرت (زوجها) يزيد

اهتماماً بالسياسة والادارة يوماً فيوماً وهو صالح لها كلبها لانهُ شجاع صريح واما انا فازيد كرهاً لها يوماً فيوماً . ونحن معاشر النساء لم نخلق للحكم واذا قمنا بما يُطلَب منا وجب ان نكره الترجل ولكنَّ للزمان احكاماً ولذلك اضطررت بحكم الزمان ان اهتمَّ بالسياسة اهتماماً شديداً "

وكان اهتمامها بزوجها يفوق كل اهتمام ما عدا اهتمامها بشؤون مملكتها لانها كانت تحسب انها هي وزوجها المملكة لا المملكة لها . وسنة ١٨٦١ احتفلا بعيد زواجهما وكتبت حينئذٍ الى خالها الملك ليوبلد تقول "ان قليلات من النساء يستطعن ان يقُلْنَ معي ان ازواجهنَّ بقوا بعد السنة الحادية والعشرين من اقترانهنَّ بهم على ما كانوا عليهِ يوم الاقتران من الحب واللطف والتودُّد" . وكتبت اليهِ مرةً اخرى تقول " انك لا تستطيع ان تعلم كم يشقُّ عليَّ غيابهُ (اي غياب زوجها) فانني اشعر في غيابهِ كانني وحيدة غريبة فاعدُّ الساعات والدقائق الى حين رجوعهِ واولادي كلهم لا احسبهم شيئاً ما دام ابوهم غائباً كأنَّ حياة العائلة كلها فيهِ" . وهذهِ هي مزية الزواج المربوط بالحب والعفاف وهي الضامن الوحيد لبرِّ الاولاد بوالديهم وحب الناس لاوطانهم . لكن جاءها القدر المحتوم على عجل وفرَّق بينها وبين زوجها فراقاً لا يعقبهُ لقاء في هذه الدنيا فقُبض الى رحمة ربهِ في الرابع عشر من دسمبر (ك ١) سنة ١٨٦١ . ولا تسَل عمَّا اصابها من الحزن والكآبة ولم تزل متشحة اثواب الحداد حتى الساعة . لكنَّ ثورة الحزن لا تدوم ولو دامت اصولهُ في النفس نخفَّ مصابها مع الزمان ثم رزئت بعدهُ بابن وابنة وحفيد وكلهم في زهرة العمر وعنفوان الشباب فسلَّمت للقدر وعلمت ان مقامها لا يرفعها عن الرزايا التي تصيب احقر الصعاليك من شعبها

وقد رأت لها باباً للسلوى في تأليف سيرة زوجها . ثم اتبعتها بكتابين آخرين جمعت فيهما كثيراً من الحوادث المذكورة في تاريخ حياتها على ما هو محفوظ في مذكراتها اليوميَّة وغرضها من هذه الكتب الثلاثة ان تشهر في الخافقين ما امتاز بهِ زوجها من التقوى وعزة النفس ولين الطريكة والحبّ الصادق لها ولاولادهِ

وفي غرَّة سنة ١٨٧٧ لقبت قيصرةً لبلاد الهند . ثم احتفلت السلطنة الانكليزيَّة كلها سنة ١٨٨٧ بمرور خمسين سنة منذ ارتقائها الى عرش الملك واشترك في هذا الاحتفال كل من يتمتع بحقوق الامة الانكليزيَّة على اختلاف الشعوب والبلدان والمذاهب

هذا وسيأتي الكلام على سائر اوصافها ونجاح مملكتها في ايامها